تأسيس القاهرة

— ٢ —

بقلم الكابتن كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية
Capt. K. A. C. Creswell
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿ اسوار القاهرة وابوابها ﴾ يمكن تتبع حدود سور جوهر في اكثر اجزاء دائرته بكثير من الضبط بفضل المعلومات التي امدنا بها المقريزي ، ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية ،فانا ليس لدينا تفاصيل عنهُ

ولما كانت الاعمال الاولية قد تمت في اثناء الليل وبعجلة كبيرة فقد لحظ في الصباح التالي لوضع الاسس ان هناك اضطراباً في تخطيط القصر وان الخطوط لا تسير على استقامة . وكانت هذه بلا شك حال اسوار المدينة ايضاً . ومع ذلك فقد كونت مربعاً منتظماً تقريباً تواجه اضلاعه الجهات الاربع الاصلية . فيواجه الجانب الجنوبي منهُ الفسطاط ويسير الغربي محاذياً للخليج .ويواجه الشرقي المقطم والشمالي الخلاء . وكانت هناك سبعة ابواب كما يلي :

في الجنوب باب زويلة المزدوج الاقواس : وفي الغرب باب الفرج وباب السعادة : وفي الشمال باب الفتوح وباب النصر : وفي الشرق باب البرقية وباب القراطين الذي سمي فيما بعد بالباب المحروق

ولا يوجد الآن شيء من هذه الابواب ولكن يمكن تعيين مواقع الكثير منها بكثير من الدقة كما بين ذلك رافيس وكارانوفا

﴿ باب زويلة الاول ﴾ يمكن تحديد موقع باب زويلة الاول اعتماداً على ما رواهُ القلقشندي والمقريزي [1] من ان قسماً منهُ كان لا يزال موجوداً في عصره بالقرب من مسجد سام بن نوح . واذا اجتاز الانسان باب زويلة الحالي وسار تاركاً مسجد المؤيد على يساره فانهُ يجد نفسه امام سبيل تركي من العهد الاخير (سمي مدرسة المتادين على خريطة مصلحة المساحة) وفي ركن هذا السبيل القريب من باب زويلة باب صغير لمسجد سام بن نوح وهو يعطينا نقطتنا المحددة لموقع باب زويلة الاول

(١) ﴿ كان باب زويلة عند ما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح . فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذي بنى منه الى اليوم علقه وعرف بباب القوس فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الالسنة ان من مر به لا تقضى له حاجة . وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم ﴾ مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٩

﴿ باب الفرج ﴾ لا يعرف بالضبط موقع باب الفرج وقد جمع كازانوفا ما ورد في المقريزي عن هذا الباب كما يلي

١ — « كان في الجانب الغربي من القاهرة وهو الجانب الذي يواجه الخليج الكبير بابان : احدهما باب السعادة والآخر باب الفرج »

وهناك اشارات اخرى في خطط المقريزي الى ان هذا الباب كان يقع في الجانب الغربي

٢ — « رتبع السلطان خارج باب زويلة بين باب زويلة وباب الفرج وتعرف هذه البقعة الآن بهذا الاسم ويطلقون عليها اسم تحت الربع » ولا يزال تحت الربع موجوداً

٣ — « وفي منتصف جمادي الثانية ٨١٨ بدأوا يهدمون السور الحجري بين باب زويلة وباب الفرج »

ويضيف كازانوفا ان شارع سكة الشيخ فرج — الذي ربما كان تذكاراً لهذا الباب — موضح على خريطة القاهرة في عهد نابوليون (١٧٩٨) بجانب شارع تحت الربع بقرب الخليج

ومن ذلك نستخلص انهُ كان يقع بالطرف الجنوبي من الجانب الغربي وليس كما يضعه كازانوفا بالطرف الغربي من الجانب الجنوبي على عكس رواية المقريزي التي كررها في كتابه أربع مرات انهُ كان يقع في الجانب الغربي

ولنحاول الآن تعيين موقع هذه الزاوية من السور فاذا رسمنا خطًّا وهميًّا متجهاً الى الغرب من مسجد سام بن نوح فاننا نجد جنوبيه مباشرة شارعاً يسمى القسم الغربي منهُ سكة النبوية والقسم الشرقي شارع الاشراقية ، وعلى شمال هذا الخط الوهمي نجد عدداً لا يحصى من الشوارع الصغيرة المسدودة والازقة المغلقة بدلاً من ان تفتح على شارع سكة النبوية . فلماذا تقف كل هذه الشوارع والازقة الملتوية مقفلة عند هذا الطريق

اننا نرى انها تقف جميعاً امام سور جوهر الذي كان يمتد جنوبيها وان تخطيط الشوارع قد احتفظ بالنظام الذي كان عليهِ منذ ذلك الوقت الى الآن

ولدينا دليل آخر في شيء مشابه لهذا هو انهُ لا توجد فتحات مطلقاً في الجانب الشمالي من شارع تحت الربع الذي نعرف انهُ كان يسير خارج السور الجنوبي الذي انشأهُ بدر الجمالي ، وان كان هذا السور قد ازاله المؤيد منذ خمسمائة عام

فاذا قبل هذا الرأي ، وكان صحيحاً ، فان السور الجنوبي كان لابد أن يتصل بالسور الغربي في المكان الذي تشغله الآن محكمة الاستئناف ويكون موقع باب الفرج في هذه النقطة

﴿ باب السعادة ﴾ يضع رافيس باب الفرج وباب السعادة في الجانب الغربي ، ولكنهُ يجعل الباب الاخير بقرب الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة . ولما كان المقريزي يتكلم عن ربع السلطان خارج باب زويلة ، بين باب زويلة وباب الفرج ، فمن المؤكد ان هذين البابين كانا متجاورين ، وان باب السعادة كان ابعد منهما ، وبمعنى آخر كان موضعه الى جهة الشمال اكثر من باب الفرج

ويضع كازانوفا باب السعادة بالقرب من الطرف الجنوبي للسور الغربي لما رواه للمقريزي من ان هذا الباب قد سمي باب السعادة تيمناً باسم سعادة بن حيان الذي تقدم من مراكش بعد ان بنى جوهر القاهرة ونزل بالجيزة . فذهب جوهر لمقابلته وتلا ذلك ان دخل سعادة بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب سنة ٣٦٠ (مايو سنة ٩٧١) وعسكر بها

ويرى كازانوفا ان سعادة لابدَّ قد عبر النيل الى الفسطاط على الجسر الذي كان مقاماً من المراكب ثم سار الى القاهرة من الجنوب ولدخوله من باب سعادة — الذي نعرفه انهُ كان في الجانب الغربي — يرى كازانوفا ان هذا الباب لا بد كان قريباً جداً من الطرف الجنوبي لهذا الجانب

ولو كان سعادة بن حيان عازماً على دخول القاهرة من اول باب يلقاه في طريقه لكان هذا الاستنتاج صحيحاً

ولكننا نعلم انهُ قد امتنع من الدخول من باب الفرج وهو اول باب يلقاهُ

لذلك فنحن لا نوافق كازانوفا على رأيه . اذ من الواضح انهُ قد اختار باب سعادة لانهُ اصلح الطرق الموصلة الى قصر الخليفة او الى القصور الاخرى التي كان يدعوه الواجب الى التوجه اليها

ولا يزال يوجد شارع يسمى درب سعادة يحفظ لنا ذكرى هذا الباب ونظراً لان هذا الشارع يسير موازياً للخليج من باب الخلق الى مسجد السلطان جقمق فربما كان موقع هذا الباب الى جهة الشمال بالقرب من هذا المسجد

﴿ باب الفتوح الاول ﴾ يقول المقريزي انهُ كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الاول اجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية وان هذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من جنوبيها دون جدار الجامع الحاكمي (١)

وقد بدىء في بناء هذا المسجد في رمضان سنة ٣٨٠ (نوفمبر — ديسمبر ٩٩٠) وكان خارج أسوار ذلك العهد

ولذلك فباب الفتوح الاول لا بدَّ كان يقع قريباً من ركن هذا المسجد الغربي

﴿ باب النصر الاول ﴾ كان يقع باب النصر الاول قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد روى المقريزي (٢) انهُ رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت توجد رحبة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لمسجد الحاكم

وهذه المدرسة لا توجد الآن ولكن يظهر على خريطة القاهرة في عهد نابليون التي رسمتها البعثة العلمية سنة ١٧٩٨ مسجد يسمى مسجد الشيخ قاصد . فلذلك نرى ان موضع هذا الباب كان بشارع باب النصر قريباً من الركن الجنوبي لمسجد الحاكم . ويظهر ان تخطيط هذا الشارع واتجاهه بقي على حاله ولم يتغير

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١١ (٢) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٠

﴿ باب البرقية ﴾ ان تحديد موقع باب البرقية امر صعب التحقيق لأن الفصل الذي عالج فيه المقريزي ابواب القاهرة يقف عند عنوان باب البرقية

ويقول كازانوفا ان الفصل الخاص بباب البرقية غير موجود في جميع مخطوطات المقريزي التي رجع اليها في باريس بل ان بعض هذه المخطوطات لا يوجد به حتى عنوان هذا الفصل

ولا يوجد الآن باب بهذا الاسم . كما انهُ لا يوجد على خريطة القاهرة في عهد نابوليون سنة ١٧٩٨ باب بهذا الاسم ايضاً . اضف الى ذلك اننا لا نعرف بالضبط موقع الجزء الشمالي من السور الشرقي

﴿ باب القراطين ﴾ يمكن تعيين موقع باب القراطين تعييناً أقرب الى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حلَّ محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق [1] وقد اطلق عليه هذا الاسم بسبب ما فعله صبيحة مماليك هربوا من القاهرة عند ما علموا بقتل الفارس الاميرقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢هـ (٦ اكتوبر ١٢٥٤م) ففي اثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر اذ كانت تغلق ابواب مدينة القاهرة في الليل . فأوقدوا النار في الباب « حتى سقط من الحريق » وخرجوا منه ، ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق

ونظراً لان المقريزي يخبرنا انهُ كان يوجد حتى سنة ٨٠٣ هـ (سنة ١٤٠٠ — ١م) جانب كبير من السور الذي بناه جوهر بالطوب بين باب البرقية ودرب بطوط . وان هذا السور كان يبعد خمسين ذراعاً خلف سور صلاح الدين

فلذلك تقرر ان موقع باب القراطين الاول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي

واذا رسمنا خطاً متجهاً نحو الشرق من مسجد سام بن نوح الى نقطة تقع تماماً على امتداد الموقع الذي قررناه آنفاً لباب القراطين الاول فمن المحتمل ان تكون قريبين جداً من سور القاهرة

ومن المهم ان يلاحظ ان هذا الخط يمكن رسمه بين نهايات عدد من الشوارع والازقة المغلقة التي تقع على جانبيه كما رأينا عند ما رسمنا خطاً متجهاً الى الغرب من المسجد نفسه . ولا يخترقه الا شارع واحد متعرج هو شارع حيضان الموصلي الذي يقع فيه مسجد الامير سردون القصروي

***

﴿ باب القنطرة ﴾ بعد ان مضى عامان على تأسيس القاهرة اضاف جوهر باباً آخر هو باب القنطرة [2] الذي سمي باسم القنطرة او الجسر الذي أقامه فوق الخليج ليوصل المدينة بميناء المقس حين تقدم القرامطة في شوال ٣٦٠ هـ (يوليو — اغسطس ٩٧١م)

ونضيف نحن ان جسراً يدعى القنطرة الجديدة كان يوجد هنا حتى ردم الخليج في نهاية القرن

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٣

(٢) المقريزي ص ٢١٣ جزء ثان

التاسع عشر . وقد جمع كازانوفا ما ورد بالمقريزي عن هذا الباب . وأني اذكره هنا مع تغيير يسير في الترتيب حتى يكون اقرب الى الوضوح والتسلسل المطلق

١ — « ان خط باب القنطرة كان يعرف باسم المرتاحية والفرحية » وهذا الحي الأخير تبعاً للمقريزي هو نفسه سوق أمير الجيوش

٢ — «ويوصل سوق امير الجيوش الى باب القنطرة» ويخبرنا ابو المحاسن ان اسم امير الجيوش قد غير الى مرجوش فنستنتج من ذلك ان باب القنطرة كان يقع في النقطة التي يقطع فيها هذا الشارع الخليج . ولا يزال يطلق على هذا الشارع الاسم الاخير اي مرجوش

٣ — « والى جانب باب الفتوح يقع طريق يوصل لحارة بهاء الدين وباب القنطرة » وهذا الحي تبعاً للمقريزي يقع بين باب الفتوح القديم وباب الفتوح الجديد أي بين السورين القديم والجديد . وفي الحقيقة يسير شارع بين السورين متجهاً الى الغرب من الركن الجنوبي الغربي لمسجد الحاكم حيث وضعنا باب الفتوح الأول

وأهم من ذلك انهُ يميل بزاوية قائمة عند طرفه الغربي ليلتقي بسوق مرجوش عند نفس النقطة التي قررنا انها كانت موضع باب القنطرة . وفي نفس هذا الموضع في الجانب الشمالي من نقطة اتصال الشارع بالخليج وجد باتريكولو اثناء عمليات الحفر التي باشرها سنة اثني عشر تماماً قاعدة البرج الشمالي للباب مع واجهة لنصف دائرية شبيهة بالابراج التي تقع الى جانب باب الفتوح وباب زويلة

ويرى في القسم الخلفي من البرج الجزء الاسفل من سلم حلزوني والى الشمال منهُ وعلى بعد كبير من سطح الارض الحالي يوجد الجزء الاسفل من حائط حجري يسير شمالاً موازياً لشارع الخليج المصري او بمعنى آخر موازياً للخليج القديم

***

﴿ باب حديدي منقول من الفسطاط ﴾ لحظ ريتمر انهُ كما كان العرب مغرمين عند انشائهم مدناً جديدة في العراق بنقل ابواب المدن القديمة الى المدينة الجديدة فكذلك فعل جوهر حين انشأ القاهرة اذ نقل اليها باباً حديدياً من قصر الامارة بالفسطاط . ولكننا لا نعلم بالضبط اين وضع هذا الباب . ومن المحتمل ان جوهر كان يقصد بذلك ان ينافس المهدية التي كان لها كما روى البكري بابان من الحديد . وربما كان اشهر الامثلة لوضع ابواب حديدية للمدن هو ما يأتي : —

استولى الخليفة المعتصم على عامورية سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) بعد حصار دام ٥٥ يوماً صوبت بعده المدينة بالارض ثم اخذ باب المدينة الى سرّ من رأى وبعد ان هجرت سرّ من رأى اخذ الباب الى الرقة . وفي سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤م) ارسله سيف الدولة الى القرامطة ليسد حاجتهم الى الحديد . ثم نسمع بعد ذلك ثانية انهُ استخدم في حلب . استخدمه الملك الناصر يوسف ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) عند ما اعاد اصلاح باب قنسرين . وعند ما اخذ المغول حلب ١٢٥٨ كان هذا الباب اول ما

نهبوه . ولكن استردّه منهم بيرس عند ما اخذ المدينة . ثم مزق الصفائح الحديدية التي كانت براجهته وأرسلها هي والمسامير الكبيرة المستخرجة منهُ الى القاهرة

***

﴿ الخندق ﴾ رأينا فيما سبق ان موقع القاهرة قد اختير لغرض سريع هو تغطية الاماكن القريبة من المدينة الثلاثية الفسطاط والعسكر والقطائع وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يغيرون وينهبون ويخربون السهل ويهددون الفسطاط

فتنفيذاً لهذه الخطة الدفاعية امر جوهر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة اذرع كان يتجه غرباً من المقطم الى منية الاصباغ . وقد بدىء فيهِ في شعبان ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١م) وتم حفره سريعاً وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة عقب ذلك بقليل احداها في ربيع الاول ٣٦١ هـ (دسمبر ٩٧١) والثانية في ٣٦٣ هـ (٩٧٤م) وقد استطاع القرامطة ان يعبروا الخندق في الغارة الثانية ولكنهم لم يستطيعوا ان يستولوا على القاهرة

***

﴿ الطوب المستعمل في بناء الاسوار والابراب ﴾ ليس لدينا مع — الاسف الشديد — تفاصيل معيارية عن الاسوار والابواب التي بناها جوهر الا ما رواه المقريزي مما سبق ذكره من ان اللبن الذي بنى منهُ ذلك الجزء من السور الذي كان قريباً من باب البرقية كان مقاسه ذراعاً × ⅔ ذراع

وقد كان استعمال الطوب الكبير الحجم من خصائص العمارة قديماً في فارس وبلاد النهرين

ويقول أشر ان الطوب المبني منهُ السور القديم لمدينة نينوى كان متوسط مقاسه ١٥ بوصة وسمكه ٥ بوصات . كما شاهد بالقرب من اصفهان بقايا سور معبد قديم من معابد النار كان مبنيًّا بطوب كبير الحجم ايضاً

ورأى Ferrier طوباً محروقاً في القباتن مقاسه ٢٠ بوصة × ١٥ بوصة في خرائب بلخ . بل وجد أحياناً قوالب من الطوب طولها تقريباً ثلاثة اقدام وسمكها اربع بوصات مبعثرة في قلعة فرح في سستان وذكر ايضاً طوباً تبلغ الواحدة منهُ بارذة مربعة في رود بار وبولكار على نهر هلمند

وذكر الكولونيل ث. ا. بيت انهُ شاهد طوباً كبير الحجم مستوي السطح مساحته قدم مربع وسمكه بوصتان او ثلاث بوصات في اكرام وخرائب بستان بين مرجان وجلال أباد على نهر هامرن وكذلك في جسر متخرب ذي عقدين يسمى تختيل بالقرب من بلجي

وشاهد ايضاً في جرمش تبي (او التل الفضي) — وهو تل يقع على ضواحي بحر قزوين يبلغ ارتفاعهُ عشرين قدماً تقريباً ومملوء بقوالب الطوب المهشمة — بعض هذه القوالب ومتوسط حجمها ١٤ بوصة مربعة × ٣½ بوصة

وذكر الكولونيل ايضاً اربعة جسور هي پل خاتون وماروشاك وتريل وپل خشتي (عند التقاء

نهر الكوش بنهر مرغاب) مبنية جميعها بالطوب المستوي المحروق الكبير الحجم الذي مساحة الواحدة منهُ قدم مربع

وذكر أيوان سميث طوباً محروقاً مساحته ١١ بوصة مربعة بقلعة الفتح في سستان كما تكلم عن خزان في ناد علي مبني بالطوب الكبير الحجم . وتقول Lady Shiel ان معاقل قيرامين التي تبلغ مساحتها نصف ميل مربع ومحصنة بأبراج على مسافات قصيرة قد بنيت بلبن كبير الحجم . ومع انهُ لا يوجد اي شك في قدم هذه الامثلة فانهُ لا يمكن تحديد تاريخها بالدقة . ولكنها مع ذلك تدلنا على ان استعمال الطوب الكبير في البناء كان واسع الانتشار

***

ولنذكر الآن بعض الامثلة المعروفة التواريخ . فقد بنى السور الداخلي لمدينة المدائن بفارس (طيشفون) على اساس مكوّن من مداميك من ثلاث طبقات من الطوب المحروق المطبوع عليهِ اسم نبوخذنصر (٦٠٤—٥٦١ ق . م .) المأخوذ من خرائب بابل . وكان مقاس هذا الطوب ٣١ الى ٣٣ سم مربع ويتراوح سمكه من ٦ الى ٧½ سم

اما طوب السور الخارجي وبقية السور الداخلي فيبلغ حوالي ٣٦ سم مربع وسمكه ١٣ سم .

كذلك الطوب الذي استعمل في بناء ايوان كسرى بالمدائن الذي اثبت العلامة هرتسفيلد انهُ من عمل شابور الاول (٢٤١—٢٧٢م) فان مقاسه ٣٠—٣٢ سم مربع وسمكه ٨—٩ سم وفي تل مسحاي التي تبعد عن المدائن بمسافة يقطعها الراكب في ساعتين وجد الكولونيل جون لينا مساحة الواحدة منه ١٤ بوصة مربعة ونوعاً آخر كبير الحجم من المحروق في القبائن . وبالقرب من دستجرد وجد هرتسفيلد سور مدينة مبنيًّا بطوب مساحتهُ ٤٢ سم وسمكه ١٣½ سم . كما ان اسوار مدينة بغداد المستديرة التي اسسها المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) قد بنيت بالطوب المجفف في الشمس وبعضه مربع طول كل ضلع من اضلاعهِ ذراع وزنتهُ مائتا رطل . وبعضه طوله ذراع وعرضه نصف ذراع

وقد بني السور المحيط بمسجد الرقة سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بلبن مساحتهُ ٤٣ سم مربع وسمكه ١١ سم

اما احدث الامثلة المعروفة لنا فتوجد بشرجاز في ميل نادري في مئذنة يرجع عهدها الى القرن الحادي عشر او الثاني عشر مبنية بالطوب المحروق الذي تبلغ مساحته ١٤ × ١٢ × ٢ بوصة

***

لذلك يمكننا ان نقرر اعتماداً على الحقيقة المعمارية الوحيدة المعروفة لنا عن سور جوهر — وهي حجم الطوب — ان هذا السور مظهر من مظاهر تأثر فن البناء في مصر بالفن الفارسي حيث ان الطوب الذي كان يستعمل بمصر الى ذلك العهد كان معتدل الحجم